بِسْمِ اللَّهِ

تعوّدتُ الحَياةَ بِلا نِسَاء

البحر: الوافر التام **عدد الأبيات: ٩٦**

قال الفقير لعفو ربه الغنيّ/ أبو قُدامةَ المِصريّ «عفا الله عنه»:

تَعَوَّدتُّ الْحَيَاةَ بِلا نِسَاءِ ... وَحِيدًا فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ

جَرِيحَ الْقَلْبِ، مَغْلُولَ الْأَيَادِي ... شَرِيدَ الذِّهْنِ، دَائِمَ الانْطِوَاءِ

فَكَمْ نَادَيْتُ حَتَّىٰ بُحَّ صَوْتِي! ... وَذَاتُ الدِّينِ لَمْ تَسْمَعْ نِدَائِي

وَإِنْ وُجِدَتْ، وَإِنْ سَمِعَتْ؛ فَلَيْسَتْ ... بِمُسْمِعَةٍ لِصُمِّ الْأَوْلِيَاءِ

فَأَكْثَرُهُمْ يُمَنِّي النَّفْسَ صِهْرًا ... حَسِيبًا مِنْ فَصِيلِ الْأَغْنِيَاءِ

لِيَرْفَعَ مِنْ خَسِيسَتِهِ ابْتِدَاءً ... وَيَنْعَمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالسَّخَاءِ

كَذَلِكَ صَارَ كُلُّ السَّهْلِ صَعْبًا ... بِحِرْصِ الْأُمَّهَاتِ عَلَى الرِّيَاءِ

وَلَسْتُ بِمُفْتَرٍ؛ بَلْ ذَاكَ حَقٌّ ... يُرَىٰ كَالشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ

وَقَدْ عَايَنْتُ؛ بَلْ عَانَيْتُ دَهْرًا ... وَطَالَ لِسَانُ حَالِ الْأَدْعِيَاءِ

وَصَارَ الْيَوْمَ مَسْمُوعًا صَرِيحًا ... يُكَمِّمُ مَنْ يُشَكِّكُ فِي ادِّعَائِي

يَقُولُ: «أَرَاكَ ذَا خُلُقٍ وَدِينٍ ... وَلَٰكِنْ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الثَّرَاءِ

فَأَقْصِرْ عَنْ رَجَائِكَ فِي بَنَاتِي ... بِفَقْرِكَ لَسْتَ أَهْلًا لِلثِّرَاءِ»

فَبِئْسَ الرَّدُّ مِنْ جَشِعٍ جَهُولٍ ... يُتَاجِرُ بِالْبَنَاتِ بِلا حَيَاءِ

وَإِنْ أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ فِيهِ قُلْنَا ... تَغَافَلَ عَنْ وَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ

فَتَأْخِيرُ الْبَنَاتِ بِلا زَوَاجٍ كَإِكْرَاهٍ لَهُنَّ عَلَى الْبِغَاءِ
وَتَعْسِيرُ الْحَلَالِ سَبِيلُ غَيٍّ مُؤَدٍّ لِلْحَرَامِ وَالاعْتِدَاءِ
يُزَكِّي فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ شَاعَتْ بِإِفْسَادِ الشَّبَابِ الْأَسْوِيَاءِ
فَهُمْ مَا بَيْنَ مِطْرَقَةِ الدَّوَاعِي وَسَنْدَانِ التَّوَحُّشِ فِي الْغَلاءِ
عَجِبْتُ وَقَدْ سَئِمْتُ سَمَاعَ رَفْضٍ وَتَبْرِيرٍ لِظُلْمِ الْأَوْلِيَاءِ
وَلَسْتُ بِعَاطِلٍ أَوْ فِيَّ عَجْزٌ فَكَيْفَ بِمَنْ أُصِيبَ بِالابْتِلاءِ؟!
مَلَلْتُ مِنَ الْكَلامِ فَطَالَ صَمْتِي وَطُولُ الصَّمْتِ أَشْبَهُ بِالرَّثَاءِ
فَصَمْتِي الْيَوْمَ أَبْلَغُ مِنْ كَلامِي وَكَظْمِي الْغَيْظَ يَحْفَظُ كِبْرِيَائِي
نَظَرْتُ إِلَيَّ فِي الْمِرْآةِ يَوْمًا وَقَدْ بَدَأَ الشَّبَابُ فِي الانْقِضَاءِ
كَسَانِي الْحُزْنُ غَمًّا رغْمَ أَنْفِي وَلَيْتَ الْغَمَّ يُخْلَعُ كَالرِّدَاءِ
وَمِمَّا زَادَ غَمِّي وَاسْتِيَائِي تَجَاهُلُ وَانْشِغَالُ الْأَصْدِقَاءِ
ظَنَنْتُ الشِّعْرَ يُذْهِبُ بَعْضَ هَمِّي فَزِدتُّ لِكَيْ أُخَفِّفَ مِنْ عَنَائِي
فَإِذْ بِحُرُوفِهِ غُصَصٌ أُجَاجٌ تُسَطَّرُ بِالدُّمُوعِ ؛ بَلِ الدِّمَاءِ
يَرَانِي النَّاسُ مَكْرُوبًا كَئِيبًا فَلَسْتُ بِمُظْهِرٍ غَيْرَ احْتِوَائِي
فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ وَلا يُبَالِي وَمِنْهُمْ مَنْ يَلُوذُ بِالاخْتِبَاءِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَلُومُ عَلَى التَّوَالِي وَيَقْدَحُ فِي حَيَائِي وَانْطِوَائِي
وَمِنْهُمْ مَنْ يَزِيدُ مِنِ اكْتِئَابِي وَيَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ رِضَائِي!

وَمِنْهُمْ مَنْ يُهَوِّنُ مِنْ مُصَابِي وَيَهْرُبُ إِنْ سَأَلْتُ عَنِ الدَّوَاءِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَاوِلُ دُونَ جَدْوَىٰ وَكَمْ عَجَزَ الطَّبِيبُ عَنِ الشِّفَاءِ !
وَأَرْحَمُهُمْ يُصَبِّرُنِي وَيُمْسِي بِظَهْرِ الْغَيْبِ يَلْهَجُ بِالدُّعَاءِ
وَأَحْكَمُهُمْ يُذَكِّرُنِي بِلُطْفٍ بِأَنَّ اللّٰهَ عَدْلٌ فِي الْقَضَاءِ
يُثَبِّتُنِي وَيُوصِينِي بِحَقٍّ وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ عَلَى الْبَلاءِ
فَنِعْمَ الْخِلُّ ذَاكَ، وَبِئْسَ فَسْلٌ مُجِيدٌ لِلْكَلامِ وَلِلْمِرَاءِ
سَقِيمُ الرَّأْيِ تَعْدِمُ مِنْهُ رُشْدًا وَقَانَا اللّٰهُ مِنْ شَرِّ الْغَبَاءِ
يُرَىٰ أَثَرُ النَّعِيمِ عَلَيْهِ دَوْمًا وَيَحْسُدُنِي عَلَىٰ مُرِّ ابْتِلائِي
وَيَقْدَحُ فِي شَرِيكَتِهِ جِهَارًا وَيَزْعُمُ أَنَّهَا سَبَبُ الْعَنَاءِ
وَقَدْ يُمْسِي يُضَاجِعُهَا طَوِيلًا وَيُصْبِحُ شَاكِيًا كَالْبَبْغَاءِ
وَيَأْكُلُ لَحْمَهَا مَيْتًا نَهَارًا وَيَأْكُلُ مِنْ يَدَيْهَا فِي الْمَسَاءِ
وَيَخْرُجُ فِي الصَّبَاحِ يَقُولُ: «تَبًّا! لَهَا مِنْ زَوْجَةٍ ! يَا لَلْبَلاءِ !
أَلَا يَا لَيْتَنِي عَزَبًا طَلِيقًا وَقَاكَ اللّٰهُ مِنْ شَرِّ النِّسَاءِ»
وَآخَرُ مِثْلُهُ يَشْتَاطُ غَيْظًا وَيَغْمُرُ بِالتَّأَفُّفِ كُلَّ رَاءِ
وَثَالِثٌ التَّسَخُّطُ فِيهِ سَمْتٌ يُثِيرُ دَوَامُ شَكْوَاهُ ازْدِرَائِي
وَرَابِعُهُمْ، وَخَامِسُهُمْ، وَأَلْفٌ وَأَكْثَرُهُمْ كَذُوبٌ أَوْ مُرَاءِ
فَقِيلَ: اسْكُتْ، لَعَلَّكَ لَمْ تُعَايِنْ حَقِيقَةَ وَاقِعٍ تَحْتَ الْغِطَاءِ

فَأَغْلَبُهُنَّ مُخْتَلِقَاتُ غَمٍّ وَمُحْتَرِفَاتُ تَنْكِيدِ الْمَسَاءِ
تَعُدُّ الْبَيْتَ إِحْدَاهُنَّ سِجْنًا وَتَشْكُو مِنْ فَرَاغٍ فِي الرَّخَاءِ
وَتَخْرُجُ سَاعَتَيْنِ بِدُونِ إِذْنٍ فَيَرْجِعُ بَعْلُهَا بَعْدَ الشَّقَاءِ
يَدُقُّ الْبَابَ لُطْفًا بِاشْتِيَاقٍ يُمَنِّي نَفْسَهُ حُسْنَ اللِّقَاءِ
فَيُقْلِقُهُ انْتِظَارٌ طَالَ جِدًّا فَيَسْأَلُ جَارَتَيْهَا فِي الْبِنَاءِ
وَيَسْمَعُ بَعْدَ كَسْرِ الْبَابِ صَوْتًا لِزَوْجَتِهِ يَجِيءُ مِنَ الْوَرَاءِ
تَقُولُ: «كَسَرْتَ بَابَ الْبَيْتِ؟! تَبًّا! أَلَسْتَ بِصَابِرٍ حَتَّى الْعِشَاءِ؟!»
فَيَسْمُو عَنْ وَقَاحَتِهَا شُمُوخًا وَيُقْسِمُ أَنْ يَنَامَ بِلا عَشَاءِ
وَمِنْهُنَّ الَّتِي تَهْوَى اخْتِرَاعًا لِأَصْنَافِ الْمَآكِلِ وَالسِّقَاءِ
فَتَجْهَرُ شَاكِرًا، وتُسِرُّ غَيْظًا: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِي اطْهِي مَا تَشَائِي»
وَكَيْفَ يَرُوقُ الاسْتِقْبَالُ إِلَّا وَعِطْرُ الثَّوْمِ فَاحَ مِنَ الرِّدَاءِ
وَلا تَفْزَعْ مِنَ الشَّعْثَاءِ يَوْمًا فَزَيْتُ الشَّعْرِ يَنْفَعُ فِي الْحِسَاءِ
فَلُذْ بِالصَّوْمِ تَنْجُ، وَلا تُجَازِفْ بِدَعْوَةِ أَصْدِقَائِكَ لِلْغَدَاءِ
فَإِمَّا أَنْ يُصَابُوا بِاكْتِئَابٍ أَوِ الْأَرْوَاحُ تَصْعَدُ لِلسَّمَاءِ
وَتَقْضِي مِنْ حَيَاتِكَ مَا تَبَقَّىٰ سَجِينًا ذَاقَ مِنْ كَيْدِ النِّسَاءِ
وَمِنْهُنَّ الَّتِي تَلْقَاكَ دَوْمًا بِوَجْهٍ عَابِسٍ بَادِي الْجَفَاءِ
تَعِيشُ لِكَيْ تُعَكِّرَ كُلَّ صَفْوٍ وَتَسْقِيَ زَوْجَهَا مُرَّ السِّقَاءِ

إِذَا غَضِبَتْ تُحَطِّمُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَرْمِي بِالْوِعَاءِ وَبِالْإِنَاءِ
وَإِنْ هَدَأَتْ تُضَيِّعْ كُلَّ قِرْشٍ بِجَيْبِكَ كَيْ تَدُومَ عَلَى الصَّفَاءِ
وَأَلْطَفُهُنَّ تَخْتِمُ كُلَّ يَوْمٍ بِأَنْغَامِ الْعَوِيلِ مَعَ الْبُكَاءِ
وَأَكْثَرُهُنَّ لا يُرْضِيهِ شَيْءٌ وَيَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ فِي الانْتِهَاءِ
فَقُلْتُ: أَجَلْ ؛ ولَٰكِنَّ اللَّوَاتِي ذَكَرْتُمْ لَسْنَ مِنْ صِنْفِ النِّسَاءِ
أَوِ الْعَكْسُ الصَّحِيحُ فَلَوْ بَقِيتُمْ رِجَالًا مَا اجْتَرَأْنَ عَلَى الْجَفَاءِ
وَإِنْ يَكْفُرْنَ عِشْرَتَكُمْ فَأَنْتُمْ سَبَقْتُمْ بِالْجُحُودِ عَلَى السَّوَاءِ
وَلَسْتُ مُدَافِعًا عَنْهُنَّ لَٰكِنْ أُذَكِّرُكُمْ بِهَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ
فَكَمْ أَوْصَىٰ رَسُولُ اللّٰهِ رِفْقًا بِهِنَّ، وَفِيهِ أَحْسَنُ الاقْتِدَاءِ
وَبَيَّنَ أَنَّهُنَّ - وَلَيْسَ ذَمًّا - خُلِقْنَ مِنِ اعْوِجَاجٍ لا اسْتِوَاءِ
فَمَنْ رَامَ اسْتِوَاءَ الضِّلْعِ يُكْسَرْ تَمَهَّلْ ! لَيْسَ ذَاكَ مِنَ الذَّكَاءِ
فَنَقْصُ عُقُولِهِنَّ هُوَ اكْتِمَالٌ لِعَاطِفَةٍ تَدُومُ بِلا انْتِهَاءِ
فَتَغْلِبُ حَزْمَهُنَّ؛ لِأَجْلِ هَذَا مُنِعْنَ مِنَ الْإِمَارَةِ وَالْقَضَاءِ
فَكَانَ عَلَى الرِّجَالِ قَبُولُ عُذْرٍ وَتَسْيِيرُ الْأُمُورِ مَعَ النِّسَاءِ
مَعَ الْحَزْمِ الْحَكِيمِ بِدُونِ كَسْرٍ وَتَزْيِينِ الْقَوَامَةِ بِالْوَفَاءِ
وَإِنِّي إِنْ ظَفَرْتُ بِذَاتِ دِينٍ وَزُحْزِحَتِ الْعَوَائِقُ عَنْ رَجَائِي
لَأَنْتَهِجَنَّ هَذَا النَّهْجَ وُسْعِي - بِعَوْنِ اللّٰهِ - مِنْ يَوْمِ الْبِنَاءِ

وَحَتَّىٰ يُغْنِيَ الرَّحْمٰنُ عَبْدًا ... فَقِيرًا لا يَكِلُّ عَنِ الدُّعَاءِ
سَأَصْبِرُ سَاعِيًا لِلرِّزْقِ أَخْذًا ... بِأَسْبَابِ التَّعَفُّفِ وَالْوِجَاءِ
وَصَوْمِي جُنَّةٌ مِنْ كُلِّ شَرٍّ ... كَمَا دَلَّ النَّبِيُّ بِلا امْتِرَاءِ
أَتَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ مُسْتَغِيثًا ... كَمَا عِنْدَ الْبُخَارِي وَالنَّسَائِي
يَخَافُ مِنَ التَّوَرُّطِ فِي حَرَامٍ ... فَمَا أَذِنَ النَّبِيُّ فِي الاخْتِصَاءِ
وَعَلَّمَهُ سُلُوكَ سَبِيلِ رُشْدٍ ... وَصَبَّرَهُ عَلَىٰ مُرِّ الْقَضَاءِ
وَإِنِّي إِذْ أَرَدتُّ الْخَيْرَ حَسْبِي ... سَبِيلُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي اقْتِدَائِي
لَعَلَّ اللّٰهَ يَحْفَظُنِي وَيُنْجِي ... ضَعِيفًا مِنْ بَرَاثِنِ ذِي الْعَدَاءِ
وَيُلْهِمُنِي جَمِيلَ الصَّبْرِ دَوْمًا ... عَنِ الشَّهَوَاتِ فِي زَمَنِ الْبَلاءِ
فَيَا رَحْمٰنُ ثَبِّتْ قَلْبَ عَبْدٍ ... يُقَلَّبُ فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ
وَلَيْسَ سِوَاكَ يُلْهِمُهُ رَشَادًا ... يُخَفِّفُ عَنْهُ شِدَّةَ الابْتِلاءِ
وَحَسْبِي أَنَّكَ اللَّهُمَّ رَبِّي ... كَرِيمٌ مُسْتَجِيبٌ لِلدُّعَاءِ
قَرِيبًا سَوْفَ تَكْشِفُ كَرْبَ قَلْبِي ... وَتَمْحُو كُلَّ غَمٍّ وَاسْتِيَاءِ
وَلَيْسَ لَدَيَّ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّي ... فَكَيْفَ يَخِيبُ فِي رَبِّي رَجَائِي؟!

ونظمها الفقير إلى عفو ربه الغني
خادم القرآن الكريم
أبو قدامة المصري
خالد بن عبد المعبود
غفر الله له و لوالديه و للمسلمين

تمت بحمد الله تعالى
بعد عصر الجمعة ٧ من شهر رمضان ١٤٣٨هـ

مُدَوَّنَة أبي قُدامة المصري عفا الله عنه
تلاوات ◎ منظومات ◎ قصائد ◎ مقالات
www.abuqudamah.com